الفصل الثاني:
فلسطين أصل الحضارة

أحمد الدبش

أخذ الإنسان يتدرج في الحضارة منذ زمن بعيد، وأخذ ينتقل خطوة بعد أخرى حتى وصل إلى تحقيق كثير من الاختراعات التي ساعدته على توفير الراحة والأمن لنفسه، ومكنته أيضاً من التغلب على الكثير من الصعوبات، بل والأخطار التي كانت تحدق به في حياته البدائية الأولى.

ليست قصة أصل الحضارة الإنسانية، ثم مولدها وتطورها، إلا سلسلة متعاقبة بدأت في بلادنا فلسطين. وليس بين شعوب العالم أجمع من هو أولى من شعبنا بالعناية وبذل الجهد في سبيل نشر هذا الفرع من فروع المعرفة. لأن القدر أراد لنا أن نولد ونعيش في هذه البقعة التي نبتت فيها شجرة المدنية الأولى، وشع في سمائها ذلك النور المتأجج، نور المعرفة والعلم، في وقت كان فيه العالم خارج هذه المنطقة ينوء تحت حجب كثيفة من ظلام التوحش، فمن هنا - على ما يبدو - ظهر الإنسان العاقل / منذ ما يربو على الخمسة والثلاثين ألف عام مضت. إن اعتدال الجو، وملاءمة مناطقنا لحياة الاستقرار، مكنت الناس من الوصول إلى بعض أسباب التقدم وجعلتهم يتقدمون في بعض مراحل الثقافة، وبالأخص عندما خلف الإنسان وراءه حياته كجامع للغداء، وأصبح منتجاً له، وأخذت تستقر جماعات منه على مقربة من موارد المياه، يزرعون

الأرض ويستأنسون بعض الحيوانات.

إن بعض علماء الآثار الأجانب يستخدمون على أثر " تشايلد " مصطلح " ثورة العصر الحجرى الحديث " للإشارة إلى هذا الحدث.

وقد نوه " تشايلد " بأنه استخدم كلمة " الثورة " هنا للإشارة إلى نقطة أوج التغيرات السابقة الطويلة في بناية المجتمع الاقتصادية وتنظيمه الاجتماعى. إن مصطلح " ثورة العصر الحجرى الحديث " يعكس بدقة كل أهمية الانقلاب الذي حدث ويربطه، بالإضافة إلى ذلك، بعصر آثارى محدد، بالعصر الحجرى الحديث. إن " ثورة العصر الحجرى الحديث " أو بالأحرى ذروتها، تتسم قبل كل شيء بظهور أهم ثلاثة عناصر في حياة الناس: الزراعة وتربية الماشية (كأساس للاقتصاد). والمستوطنات الدائمة، وصناعة الفخار. إن الانتقال من القنص وصيد السمك وجمع النباتات، أى تلقى منتجات الطبيعة الجاهزة إلى إنتاج الطعام - الزراعة وتربية الماشية - والتبدلات المرتبطة بهذا، حولت بوضوح، أكثر من أى شئ أخر، ظروف تطور الحياة البشرية وغيرت بيئة الإنسان الطبيعية وبيولوجيته، وغيرت كل كوكبنا إلى درجة معينة.

إن كل الباحثين تقريباً متفقون على المغزى الكبير الذي تنطوى عليه " ثورة العصر الحجرى الحديث " بالنسبة إلى تطور المجتمع البشرى. ولكن ما أن حاول العلماء الانتقال من المسلمات والأحكام العامة إلى النظر في الوقائع والمواد الملموسة، حتى ظهر السؤال الآتى:

أين جرى " إنقلاب العصر الحجرى الحديث " على وجه التحديد،

وفي أى وسط طبيعى - جغرافى؟.

أضواء على الحضارة الناطوفية:

إذا أردنا أن نبحث عن الجهة التي قامت فيها هذه الثورة - الانقلاب - فيجب أن نذكر أن فلسطين كانت هي مسرح الارتقاء الأساسى للثقافة في العصر الحجرى القديم، وأن أعظم الحضارات القديمة وأسبقها نشأت هناك. فإليها تنسب أولى التجمعات البشرية المستقرة، منذ العصر الحجرى الأول، عصر الرجل الصياد، وعصر المرأة ربة الكهف، ورأس النسب، وسيدة الإنتاج البدائى، وأريحا الفلسطينية، هي التي شهدت أولى التجمعات البشرية في كهوف متجاورة جنباً إلى جنب مع كهوف الكرمل وطبريا ومرتفعات القدس.

فقبل مرحلة الثورة (الزراعة)، كان الإنسان يتجول ويستعمل الأدوات، أو قل متوحشاً، وكان كل ما يملكه أشياء هينة الحمل، وكان يقضى حياته في اقتناص الغذاء، تتداول عليه الأيام ما بين مدد طويلة يقضيها طاوياً، وأخرى يمضيها في رغد. كان حراً، وكانت حياته في خطر مستديم. ولكن من الواضح أنه في تلك الفترة حدث تطور بصورة سريعة نحو العصر الحجرى الحديث. وقد سميت الفترة الانتقالية بين العصر القديم والحديث بالعصر الحجرى الوسيط، ودامت نحو ستة آلاف سنة اعتباراً من حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد، وتتمثل هذه الحضارة في بلادنا فلسطين " بالحضارة الناطوفية "، الذي سميت لذلك باسم وادى النطوف شمالى غربى القدس.

لقد حصلت الاكتشافات الأولى لهذه الحضارة من قبل " مالون "

A. Mallon و " غارود " D. Garod في موقع شبقة في وادى النطوف بفلسطين وهناك مغارتان في جبل الكرمل هما مغارة الواد الكبار (Turville - Petre 1932) و (Garrod et Bate 1937) ومواقع فلسطينية هي عرق الأحمر، أم الزويتنية، عين صخرى، اكتشفت من قبل " نوفيل " (Neuville 1951)، إلى السوية الناطوفية في يبرود في سورية (Rust 1950) والتنقيبات الأخيرة في أريحا (Kenyon ١٩٥٧) وعين الملاحة (Perrot 1966 - b) والخيام (Echegarary 1966)، وناحال أورن (Stekeliset,Yizarely1963) وهذه المواقع اكملت المعلومات المتوفرة حول ذلك العصر.

فقد كانت الحضارة الناطوفية الفلسطينية حضارة (ميكروليثية) بالمعنى الصحيح، أى أنها تتميز لصناعة الآلات الصوانية الدقيقة الحجم، خاصة النصل القمرى، ومن أهم الآلات الصوانية الكبيرة في هذه الحضارة، نصال المناجل والمعاول، مما يدل على الحياة الزراعية في الحضارة الناطوفية، وعلى أنها كانت تلم بحصد الحبوب، مما استلزم مناجل بصفة منتظمة وبعض الآلات التي سمتها " غارود " معاول هي أقرب إلى الفؤوس التي استخدمت لغرف الأرض قبل بذر الحبوب، هذا يتضح أن أقدم الناطوفيين كانوا أول مرحلة بدائية لحضارة الفأس، أى أنهم كانوا منتجى وجامعى طعام في الوقت نفسه. ويميل " تشايلد " إلى اعتبار الحضارة الناطوفية ممثلة لمرحلة الانتقال من جمع الطعام إلى إنتاجه.

فمنذ حوالى عشرة آلاف سنة تقريباً، ظهرت أولى التجارب الزراعية

" في أريحا جنوباً، وفي تل المربيط أبيب شمالاً ".

ويبدو أن الناطوفيين كانوا البادئين أو الممارسين الأول على الأقل، لفن الحصاد الذي بقى في المستعمرات الزراعية للعصور الحجرية الجديدة. فإن مناجلهم الغريبة كانت مكونة من مقبض مشقق فيه قطع قصيرة من الصوان كالأسنان، وقد وجد مثل هذه المناجل أيضاً في أقدم المستعمرات في الفيوم في مصر، وتل حسونة في شمال العراق وفي سيالك قرب كاشان في فارس. وكذا يتضح أن نشر الزراعة لم يكن مجرد انتشار المعرفة بالحنطة والشعير وحسب، بل كان إلى جانب ذلك تعميم أداة الحصاد الغريبة المعقدة التي استعملها الناطوفيين لأول مرة كما نعلم.

قد يكون الناطوفيين زرعوا محصولاً ما، أو جمعوا أعشاباً، لكنهم إلى جانب ذلك قاموا بصيد الأسماك من البحيرات، والمستنقعات، وبعض المجارى المائية الدائمة، التي أقام الناطوفيين بجوارها. وقد دلت على هذا لصيد، الخطاطيف، والصنانير، وبقايا عظام الأسماك، التي وجدت. كما كان صيد الحيوانات نشاطاً هاماً أيضاً دلت عليه البقايا العظمية. فقد استطاع أصحاب الحضارة الناطوفية استئناس الكلب، ويقدم لنا اكتشاف جمجمة كاملة تقريباً لكلب في طبقات أحد كهوف الكرمل، أول برهان على تدجين الحيوانات. غير أننا لا نعرف هل هناك حيوانات أخرى استأنسها الإنسان إلى جانب الكلب في هذه الفترة. رغم أنه عثر على بقايا حصان وماشية في الرواسب الناطوفية. وقد توصلت الآنسة " بيت " (A. Bate) بالمتحف البريطانى عن طريق دراستها لهذه البقايا إلى أنها ترجع إلى بعض الحيوانات البرية.

من الناحية البشرية، ينتمى أصحاب تلك الحضارة إلى عنصر البحر المتوسط، تدل الهياكل العظمية التي عثر عليها في مواضع مختلفة، أن أصحاب هذه الثقافة كانوا أقرب إلى قصر القامة، ويمتازون بالنحافة، يحملون صفات البحر المتوسط، برأسها الطويل، ووجهها الضيق - المسكون - مثل كثير من العرب الحاليين.

من أهم مواقع الحضارة الناطوفية الأثرية، موقع عين الملاحة شمال غرب بحيرة الحولة، حيث يعتبر النموذج الحقيقى للقرية التي ضمت أبنية وتجمعاً سكانياً دائماً. لقد حفرت " البيوت " في الأرض، وكان لها جدران دائرية من الحجر بقيت محفوظة أحياناً حتى ارتفاع متر واحد. الأرضيات كانت غالباً مرصوفة بالحصى ومحفورة فيها المواقد والأحواض. إن الأبنية، إضافة إلى الأثاث الثقيل الذي وجد فيها، وما أظهرته الدراسات حول مصادر الغذاء، قادت " بيرو " إلى اعتبار عين الملاحة مركزاً سكنياً دائماً، قدر عدد بيوت السوية الواحدة فيه بخمسين بيتاً أقام فيها ما بين ٢٠٠ - ٣٠٠ إنساناً.

لقد أتت الفنون الناطوفية الأولى من فلسطين، سواء من المواقع المكشوفة أو الكهوف، وهى دمى حيوانات صغيرة، مصنوعة إما من الطين أو الحجر أو من قرن الغزال، بعضها واقعى، وأخرى مختزلة ومبسطة، نذكر منها قبضان مناجل عظمية تنتهى على شكل رأس الغزال وجدت في السوية الناطوفية في مغارة الكبارا ووادى فلاح، ومن الأعمال التي صورت البشر لدينا نماذج صغيرة، كالرأس المبسط المنحوت على لوحة حجرية من موقع الواد، ودمية بلا رأس، ولا أطراف من عين

الملاحة، وتمثال صغير وجد في عين صخرى بفلسطين، يصور شخصين رجلاً وإمرأة في احتضان حميم، وهو بلا شك العملية الجنسية التي كانت مجتمعات ما قبل التاريخ القديم تنظر إليها بقدسية كما بعض الشعوب الحالية. إضافة إلى ذلك، فقد وجدت في معظم المواقع أدوات زينة كالخرز، والأطواق، أو الحلق المصنوع من الصدف، والأسنان المثقوبة، والفقرات، وزخارف أخرى، على شكل أتت من موقع رأس زين بفلسطين.

عثر على عدد من الأدلة الأثرية المعبرة عن الفكر الدينى في تلك الحضارة، مثل بعض المقابر الفردية، والجماعية، التي تؤكد اعتقاد إنسان تلك الحضارة في الحياة الأخرى، ومن الأهمية الإشارة إلى أن تلك المقابر لم تكن مجرد حفر تحت مستوى سطح الأرض توضع فيها جثث الموتى، بل قد لوحظ بعض الكتل الحجرية فوق بعض الهياكل العظمية، مما يمكن تفسيره كمحاولة مبكرة لتخليد المتوفى في منزله الأبدى. وربما يتجه الرأى إلى تفسير أخر يعتمد على الرغبة في المحافظة على جثة المتوفى من الحيوانات الضارية، التي من المحتمل أن تنهش جسد المتوفى، مما يتنافى مع عقيدة الخلود، ولذلك اتجه إلى محاولة تحقيق ذلك الخلود، بوضع تلك الكتل الحجرية فوق مكان الدفن، للحماية من ناحية، وأيضاً لتثبيت ذلك الاعتقاد بالأبدية.

هناك ظاهرة لها أهميتها في الحضارة الناطوفية في فلسطين، هي ذر التراب الأحمر في المقابر. ويلمس المؤرخ تواجد تلك الظاهرة، أيضاً، في بعض المجتمعات الأخرى المنتمية للعصر الحجرى الحديث، وبصفة

خاصة في إيران والأناضول. وقد اختلف العلماء في محاولة تفسير تلك الظاهرة الغامضة، ولكن اتجه رأى البعض إلى أنها ربما تتصل بعقيدة الخلود، أيضاً، من حيث أن اللون الأحمر هو لون الدم، الذي يعبر تواجده عن استمرار الحياة، وإن ذر التراب الأحمر ربما يرمز أيضاً إلى استمرار الحياة بالنسبة للمتوفى، وبذلك ينعم بالخلود في العالم الآخر.

من أهمية الإشارة، في هذا الصدد، إلى أنه مما يؤكد كون تلك المقابر متصلة اتصالاً وثيقاً بعقيدة الخلود، تواجد بعض الأدوات الخاصة مع المتوفى حتى تكون في متناول خدمته في العالم الآخر.

التاريخ يبدأ في أريحا:

يداوم العلماء البحث عن محطات حضارية أخرى تستكمل معرفة الباحث عن هذه المرحلة الحاسمة في خط سير تطوره الحضارى. ولاشك أن الإنسان قد مر بمرحلة انتقال مهدت إلى أحداث هذه الثورة الاقتصادية الهامة (الزراعة) في حياته، والتي أدت إلى نقلته نحو إنشاء القرى الأولى والاستقرار فيها، ومواصلة تقدمه الجديد في كافة المجالات المادية والفكرية، وبادئاً بذلك المرحلة الحاسمة وهى " مرحلة العصر الحجرى الحديث ".

لاشك أن الحضارة الناطوفية تعتبر من أهم مراحل الانتقال نحو إنتاج الطعام والاستقرار، فقد عثر أخيراً في أريحا على آثار الحضارة الناطوفية، ولكن بصورة متصلة حضارياً تؤكد صفة الانتقال الفعلى نحو مرحلة الاستقرار وإنتاج الطعام. ويمكن استخدام اصطلاح " ما قبل النيوليت (Proto - Neolithic) بالنسبة لتلك المرحلة السابقة مباشرة

للعصر الحجرى الحديث.

ويذهب " جـ. هاوكس " و " ل. وولى " إلى أن أول حدث لتعمير أريحا هو هو إقامة ضريح، وربما تخليداً من قبيلة صيادى الحضارة الناطوفية السفلى لحياة أصحاب النبع. وتبع ذلك أن استقرت نفس الجماعات نهائياً أو في فترات فصلية منتظمة في أكواخ واهية من نوع تلك الأكواخ التي تنتمى إلى الاستقرار النصف رعوى. هذه المحلات التي يمكن أن تطلق عليها اسم محلات قبيل العصر الحجرى الحديث، الذي يعتبر بمنازله وحصونه أول مدينة بمعنى الكلمة، أما عن الأدوات التي وجدت في أريحا فما زالت تظهر بها سمات الحضارة الناطوفية، وعن طريق التحليل الكربونى أرجع عمر الضريح إلى عام ٧٨٠٠ ق. م.

وتحاول الدكتورة " كينون " إيجاد علاقة بين ذلك الضريح أو المعبد بحكم تواجده بجوار النبع، وبين تقديس الماء. ويصعب التيقن من ذلك التفسير، ولكن مما لا شك فيه أن ذلك الإنسان القديم قد اتجه إلى الاعتقاد بضرورة تجهيز مكان معين لسكنى الإله أو الآلهة التي اتجه إلى الإيمان بها.

ترمز أريحا نفسها إلى التقدم العاصف لجملة من جوانب مؤسسيها الذي تتسم به " ثروة العصر الحجرى الحديث ". إذ صارت ترى معالجة أشكال معمارية معينة، وكذلك تكنيك البناء. وظهرت تحصينات معقدة إلى درجة معينة من أسوار حجرية وأبراج وخنادق، وكأنها تشير إلى تفوق أقدم المستوطنات الزراعية على خلفية ما يحيط بها من قبائل الصيادين وجامعى النباتات.

فقد كانت مساحة أريحا في الألفين الثامن والسابع قبل الميلاد، تصل إلى ٤ هكتارات، وعدد سكانها يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف نسمة، وكانت ذات مساكن متراصة من الطين، ومحاطة بسور حجرى عالى (حتى ٤.٥ متر) يصل سمكه إلى (١.٧ متر). وعثر على برج حجرى قطره (٩ متر) وارتفاعه (٩ متر أيضا). وكانت البلدة محاطة، علاوة على السور بخندق عرضه (٨ متر) وعمقه (٢ متر).

إن اكتشاف مستوطنة محصنة، وجدت على تخوم العصرين الحجريين الأوسط، والحديث، (الحضارة الطاحونة ذات الصلة بالناطوفية التي مازالت تعرف على نطاق ضيق حتى الآن) كان، كما يكتب " دياكونف " مفاجأة كبيرة لعلماء الآثار: كان يفترض حتى ذلك الحين أن الإشتباكات بين القبائل البدائية لم تكن أكثر من عراك على أرض الصيد أو النساء... ولكن ظروف الحياة في فلسطين في الألفين الثامن والسابع قبل الميلاد، كانت كما يبدو قلقة.. بحيث اضطر السكان إلى أن ينفقوا الكثير جداً من الوقت على بناء التحصينات القوية أيضاً.

هذا كله دفع " كينون " إلى استنتاج وجود نظام قوي ودخول التطور الاجتماعى مرحلة العمران.

لقد كان بناء المساكن في أريحا الأولى ممتازاً، والغرف واسعة نحو (٦.٥ × ٤ أمتار أو ٧ × ٣ أمتار) وكانت الغرف، عادة مستطيلة الشكل، كما كانت تبنى حول ساحة سماوية، أبعادها نحو سبعة أمتار طولاً وعرضاً وكانت أرضية البيت من طبقة طينية، تعلوها طبقة من الجير الناعم، مصبوغ باللون الأحمر أو الأصفر خفيف الصفرة، ثم كان الناتج

قاسياً، يمسح وينظف بالماء، فلا يتشقق أو يتقشر، وكانت المساكن ذات طبقة واحدة، ولم يعرف من الآثار مبلغ ارتفاعها، ولكن يظهر بعضها كان طبقتين، وكانت السقف تصنع من القصب والطين. وخلاصة القول، بلغه " كينون " مكتشفه أريحا الأولى، أن البيوت فيها كانت حسنة ومتينة، وذات تخطيط جيد، بل أن هناك دلائل تشير إلى درجة من الدعة والترف، فقد فرشت أرضيات بعض البيوت بالحصير، وهذا أمر يدعو إلى العجب بالنسبة لقدم الزمن.

ربما في الوقت نفسه ظهرت فيه صناعة النسيج في أريحا، حيث عثر بها على أحجار مثقوبة يمكن استخدامها " كمكوك ".

وقد استخدم أهل أريحا، والأوانى، والأطباق، المصنوعة من الأحجار، والمأخوذة من صخور محلية ناعمة، يمكنها أن تعطى وجهاً مصقولاً جميلاً للأوانى. ومن المحتمل جداً أنه وجدت لديهم بعض الأوانى المصنوعة من الجلود والأخشاب. أما بالنسبة لآلاتهم، فقد استعملوا الصوان أساساً في صناعتها، إلى جانب الزجاج الطبيعى الذي استخدم أحياناً. ويعتبر العدد الكبير من المقاشط والمناجل المسننة الأطراف بدقة، والرحى التي عثر عليها هنا دليلاً على أهمية الزراعة. ومما هو جدير بالذكر أنه لم يعثر على عصا معقوفة، وإن وجد في نفس الوقت عدد من الحجارة المثقوبة التي توحى بأن عصياً ثبتت بها، واستخدمت في الحفر بدلاً من العصا المعقوفة. وربما كانت الواحة - أريحا - مركزاً لحدائق وبساتين تروى، ولكن، حتى الآن، ليس لدينا أى دليل على زراعة الخضروات، والفاكهة، في هذا التاريخ المبكر. وقد

اكتشفت قليل من عظام الحيوانات المستأنسة، كما وجد إلى جوار المعبد، عدد من الأشكال النذرية، من الطين، تمثل حيوانات داجنة، كالبقر، والماعز والخنازير.

وقد برهن " دوكو " أن سكان موقع الخيام غربى البحر الميت، أول من دجنوا الحيوانات في الشرق الأدنى.

باكتشاف الزراعة، ازدادت حاجة الإنسان إلى الأوانى من الطين، وخبزها، فقام باكتشاف بالغ الأهمية في مجال تقدمه الحضارى، وسرعان ما حلت الأوانى الخزفية محل الأوانى من اليقطين، أو الجلد، أو قطع الحجارة، أو الخشب المجوفة، التي كانت تخدم حاجته الاقتصادية حتى ذلك الوقت، ولو بصورة غير تامة، وكان مؤدى الاختراع الجديد، أن الإنسان صار بإمكانه العيش على مسافة من مورد المياه التي يحتاج إليها، وأن يطبخ طعامه طبخاً حقيقياً بدلاً من أن يأكله نيئاً أو مشوياً، وأهم من ذلك أنه صار بإمكانه خزن ما لا يمكن استهلاكه في وقت معين ليستخدمه في المستقبل، وهكذا أضاف الإنسان إلى سيطرته على مورد الطعام سيطرته على حفظه، وبعد أن كان جامع للطعام في مرحلة البداوة، منتجاً للطعام في مرحلة الزراعة، أصبح الآن فوق هذا كله، حافظاً للطعام، وقد أعطاه ذلك وقتاً للفراغ بدلاً من البحث المتواصل عن وسائل المعيشة. ويظهر الخزف في فلسطين في إحدى الطبقات الدنيا في أريحا، ويعتقد " غارستانغ " أنه اخترع هناك، وقد اتخذ الخزف، في أول الأمر، شكل أحواض مجوفة في الأرض، ثم أشكال جرار وغيرها...

من الواضح أن زراعة النبات الصالح للطعام، وتربية الحيوانات من

أجل لحومها، أو الجمع بين الاثنين في الزراعة المختلطة يمثل فعلاً خطوة ثورية في الاقتصاد الإنسانى، إذا سمح بالازدياد في عدد السكان، وجعل من الممكن، بل من الضرورى، إنتاج فائض اجتماعى، ووضع خدمات بيولوجية. وعندما مارس الإنسان الزراعة وتربية الحيوانات، كان لأول مرة يسيطر على الطاقة، ويستخدمها بالإضافة إلى ما يمده به جسمه. وبذلك نشأت التجارة. فقد كانت هناك علاقة تجارية بين فلسطين، وبلاد الأناضول، حيث تم العثور على عدد من الأدوات المصنوعة من " الأوبسيديان " التي كانت تصدره بلاد الأناضول إلى أريحا وغيرها، ومقابل هذا، فإن أريحا ربما صدرت المواد الخام مثل القار، والملح من البحر الميت.

أما آثار تلك المرحلة، فقد أكتشف تمثال نسائى من الحجر الكسلى تم تحديد جنسه اعتماداً على مؤخرته فقط، التي نحتت بشكل بارز، ولكن دون إظهار التفاصيل. كما أنه لم يشر إلى بقية أجزاء الجسم الذي ظهر شكله الجانبى ملتوياً ما جعل المؤخرة بارزة، كما أن أظهار الجنس النسائى هو شيء جديد، ولكن الطابع الناطوفى بقى واضحاً من خلال الواقعية الخفية وغياب المبالغة.

اكتشفت السيدة " كينون " تمثالان نسائيان إحداهما تحمل ملامح غامضة، ورأسها مكسور، ووصفت كالتالى: ترتدى ثوباً طويلاً فضفاضاً، ضيقاً في خصره، أذرعها مثنية، والأيدى تحت الصدر وتلاحظ " كينون " أن هذه الوضعية تمثل الشكل الاصطلاحى " للربة الأم "، الذي وجد في العديد من حضارات الشرق الأدنى من العصر اللاحق، أى بعد هذا العصر

بآلاف السنين.

وتتميز التماثيل النسائية بكونها مؤلفة من مجموعات ثلاثية، كل مجموعة منها تتكون من رجل وامرأة وطفل. هذا بالإضافة إلى تماثيل أخرى تصور عضو التذكير كمظهر للخصوبة والإنتاج، والتي عمل الإنسان القديم على تقديس صفتها منذ العصر الحجرى الحديث. وهذه التماثيل الثلاثية فريدة من نوعها في ذلك العصر المبكر. ويذكر " ميرسيا إلياد "، أن هذه التماثيل، كان لها معنى طقسى، كما أنها بأن نظام العائلة كان قد اتخذ في الألف السادس الشكل الذي اتخذه فيما بعد...

من ناحية أخرى، توصل إنسان تلك المرحلة، إلى بعض الخصائص المميزة، والفريدة من نوعها في الشرق الأدنى القديم، ففيما يتعلق بعقيدة استمرار الحياة في العالم الآخر، يلاحظ المؤرخ ظاهرة فصل رأس المتوفى عن جسده، ووضع كسوة جصية فوق رأس المتوفى، حتى تظل صورته مناظرة لما كان أثناء حياته. وقد عثر على بعض أمثلة لتلك الظاهرة، كما وجدت بعض الخطوط ذات اللون فوق رأس المتوفى المكسوة بالجص ربما تكون كرداء للرأس. وتتجه " كول " (Cole) إلى اعتبار فصل رأس المتوفى عن الجسد، ودفنها بصورة مستقلة ربما يتصل بعقيدة عبادة الجمجمة. ومما يسترعى الانتباه وجود وجه شبة بين ذلك التقليد من حيث كسوة رأس المتوفى بالجص وما لا يزال متبعاً جزئياً حتى الوقت الحاضر في ميلانيزيا.

يلاحظ أن إنسان فلسطين، في تلك المرحلة، قد دفن موتاه أيضاً تحت أرضية المساكن، ويعتبر ذلك مرحلة من مراحل التطور بالنسبة إلى

تخصيص مكان معين كمنزل للمتوفى في العالم الآخر قريباً للغاية من منزل الدنيوى، وسرعان ما يتطور ذلك نحو تخصيص منزل مستقل خارج مدينة الاحياء خصيصا لذلك الغرض.

انطلاقاً من كل هذا، وتخريجاً عليه، يكون قد ظهر في أريحا (أول مجتمع قروى)، فقد كانت أريحا خلال العصر الحجرى الحديث قبل الفخارى مسورة وبها معابد، وهى أول موقع في العالم يتمتع بهذين المرفقين العاميين، ولذلك يحق وصف أريحا بأنها أقدم مدينة في العالم، وأن سكانها أول مجتمع متمدن، ذلك أن وجود السور يشير إلى وجود سلطة سياسية وعسكرية، كما أن وجود المعبد يدل على وجود ديانة منظمة ذات كهنوت وطقوس.

على ذلك، فإن كل الشواهد تشير إلى أن أرض فلسطين هي البقعة التي تحول فيها الإنسان من جمع الطعام إلى إنتاجه ثم تخزينه. ومن اليسير أن ندلل على أن الفلسطينيين هم أول من اتخذوا هذه الخطوة الثورية، وبذلك أرسوا دعائم المدنية، وليس هذا فحسب، بل أنه لا يقل عن ذلك احتمالاً أنهم ابتكروا الكثير من الفنون والحرف الأساسية، وعلى الأقل كانوا أول شعب عرفناه مارس تلك الفنون والحرف.

لقد فعل الفلسطينيون أكثر بكثير من مجرد ابتكار الزراعة، وابتداع الديانات، وفنون الحكم، فلم يقتصر عملهم على التفنن في الصناعات الخشبية، والحجرية، وفن البناء، بل امتد إلى معرفة الأصول الحسابية، والإلمام وأصول الجغرافية، واشتراع القوانين التي كانت تنظم الملكية، والعلاقات التجارية، والروابط الاجتماعية.

يسوقنا هذا إلى نقطة بالغة الأهمية، في نظرية ارتقاء الحضارة، وانتشارها، فقد اتضح أن مجتمعاً واحداً من المجتمعات القديمة لم تبلغ ما بلغته فلسطين في تملكها ناحية الحضارة. أفلا يكفى هذا دليلاً يلقى ضوءاً على موضوع المكان الذي نشأت فيه الحضارة.

من النادر أن يأخذ مجتمع من المجتمعات العديد من عناصر الحضارة عن مجتمع آخر، ثم لا يستطيع أن يبارى أستاذه أو يسبقه في ذلك الميدان. فإذا جاءت فلسطين وظلت من عصر إلى عصر فارس الحلبة في حضارتها، ولم يرتفع إلى مستواها أحد، أفلا يكون هذا التفوق شاهداً على أن الفلسطينيين هم أصحاب الابتكار؟ ألا يبين هذا أن الفلسطينيين، لابد، وأن يكونوا مبتدعى العديد من عناصر الحضارة التي نبغوا فيها، وملكوا زمامها؟ إذا كان الأمر غير ذلك، فإن حالة فلسطين تكون حالة شذت شذوذاً عجيباً عن قاعدة يسير عليها العالم في كل العصور. والتفسير الطبيعى لهذا، هو أن الفلسطينيين كانوا أول من ابتكر العديد من عناصر الحضارة في وقت كانت المجتمعات الأخرى مفتقرة إلى الكثير منها.

تليلات الغسول:

تليلات الغسول موقع أثرى مساحته ٢٠ هكتاراً، يتألف من مجموعة من التلال الصغيرة، الواقعة إلى الشمال الشرقى، من البحر الميت بنحو ٥ كم.

أكتشف الموقع عام ١٩٢٨، ثم أجريت فيه تنقيبات بين أعوام ١٩٢٩ - ١٩٣٨، أشرف عليها المعهد البابوى التوراتى برومة، وشارك فيها كل من مالون (A. Mallon) وكوبيل (R. Koeppel) ونوفيل (R.

(Neuville) واستكمل الأب نورث (R. North) هذه الأعمال عام ١٩٦٠، ثم تابع بين أعوام ١٩٦٧ - ١٩٧٨ م، الباحث هنسى (B. Hennessey) التنقيب فيه بإسم المدرسة البريطانية للآثار في القدس، وجامعة سيدنى في أستراليا.

استأنفت جامعة سيدنى التنقيبات، في الموقع، من ١٩٩٦، بإدارة بورك (Bourke)، ولا زالت هذه التنقيبات مستمرة حتى تاريخه، وهى تهدف إلى الحصول على المزيد من المعلومات عن هذا الموقع المتميز، وربطها بالتنقيبات التي جرت فيه سابقاً.

أظهرت التنقيبات أن موقع تليلات الغسول قد سكن على امتداد المراحل الباكرة والوسطى والأخيرة للعصر الحجرى - النحاسى (الكالكوليت) بين ٤٦٠٠ و٣٦٠٠ ق. م تقريباً، وكشف فيه عن بقايا معمارية مهمة بينها بيوت دائرية صغيرة، على شكل حفر في السويات الأقدم، ثم ظهرت في السويات الأحدث بيوت كبيرة مستطيلة، راوحت أبعادها بين ١٥×٥ متر، بُنيت من اللبن فوق أساسات حجرية عميقة، أرضها من الطين المرصوص، وسقوفها من الطين والقصب. ترتفع على أعمدة، وتحيط بهذه البيوت مساحات مكشوفة عثر فيها على دلائل مختلف فعاليات الطبخ والمواقد والتنانير ومخازن بعدة غرف ومشاغل مختلفة. وهناك بيوت صغيرة على شكل حفر دائرية قطرها بين ١ - ٢ متر مبنية من الأحجار، يعتقد أنها خصصت لعمليات دباغة الجلود. كما وجد نمط آخر من المنازل المستطيلة ذات الجدار الواحد المنحنى، وهو الجدار الأقصر للمنزل. كما كشف عن المعابد التي مورست فيها شعائر

دينية مختلفة، أحدها مستطيل الشكل مدخله من جداره الطويل الذي يفتح على باحة فيها مصطبة، يقوم عليها بناء المعبد الرئيسى، ولقد حمل جدار أحد المعابد رسومات جميلة من أشكال هندسية ونجوم وأقنعة وأشكال بشرية وحيوانية محفورة ذات ألوان متناسقة، دلت كلها على القدرة العالية لفنانى ذلك العصر، الذين نحتوا من الأحجار المختلفة أشكالاً بشرية محورة أيضاً، وقد نحتوا دمى حيوانية تمثل الثور خاصة.

ومن المكتشفات المهمة، الأدوات الحجرية المنوعة، كالرحى، والأجران، للطحن، والجرش، والنصال، والمناجل، والمكاشط ذات الشكل المروحى، والأدوات المسننة، والأدوات العظمية، وأدوات صناعة الأخشاب، ومختلف أنواع الخرز، ورؤوس الهراوات، والثقالات، وحجارة المغازل، والطبعات الطينية، التي تدل على صناعة السلال والمنسوجات، إضافة إلى أحجار دائرية الأشكال يعتقد أنها استخدمت لوضع الأصوات المصبوغة عليها، كما وجد القليل من الأوانى النحاسية كالبلطات والفؤوس.

تعد الأوانى الفخارية، من أهم مكتشفات هذا الموقع، وكانت عادية وبسيطة في السويات الأقدم، ثم صارت أفضل إتقاناً في السويات الأحدث، وغدت ملونة ومزخرفة بخطوط وأشكال هندسية متنوعة، بينها أوانى تخزين ضخمة مزخرفة بالحز وآثار الحبال أو الطبع بالأصابع. وهناك أوانى فخارية لها رقاب عالية، وأخرى على شكل مضخة، استخدمت لاستخراج الزبدة من الحليب. كما وجدت مزهريات حجرية على شكل صحن عميق يرتكز على قاعدة تتخللها مجموعة من الفتحات،

يظن أنها استخدمت كمباخر، إضافة إلى الأقماع، والصحون، والأكواب، وغيرها. لقد عثر في الموقع على بقايا نباتية وحيوانية، تدل على أن سكان الموقع قد عاشوا من الزراعة، ولا سيما القمح والشعير والبقول بأنواعها، إضافة إلى ثمار التمر والزيتون، كما دجنوا الغنم والماعز والبقر والخنازير والحمير.

يمثل موقع تليلات الغسول، إضافة إلى موقع بير السبع في النقب، حضارة متميزة ظهرت في نهاية عصور ما قبل التاريخ سميت بـ " الحضارة الغسولية (Ghassoulien)، عرفت بعادات دفن خاصة، إذ وضعت الجثث (الأطفال خاصة)، داخل جرار فخارية أو بشكل قرفصائى داخل حفرة في إحدى زوايا المنزل. انتشرت هذه الحضارة من منطقة العمق في سورية شمالاً مروراً بلبنان، موقع جبيل، حتى فلسطين في جنوبى بلاد الشام.

مراجع الفصل الثاني

١- غولايف، **المدن الأولى**، ترجمة: طارق معصراني، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٩.

٢- جوردون، دون تشايلد، **تقدم الإنسانية**، ترجمة: د. محمد السيد غلاب، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٧.

٣- جاك كوفان، **ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام**، ترجمة: د. سلطان محيسن، ط١، مطبعة الشام، ١٩٨٨.

٤- د. رشيد الناضروي، **جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا**، الكتاب الأول، والكتاب الثالث، دار مكتبة الجامعة العربية، ١٩٦٨.

٥- كارلتون إس. كون وادوارد أ. هنت الابن، **السلالات البشرية الحالية**، ترجمة: د. محمد السيد غلاب، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ١٩٧٥.

٦- هندى فرانكفورت، **فجر الحضارة**، ترجمة، ميخائيل خوري، منشورات، دار مكتبة الحياة، بدون تاريخ.

٧- د. فيليب حتى، **تاريخ سورية ولبنان وفلسطين**، الجزء الأول، ترجمة: د. جورج حداد وعبد الكريم رافق، دار الثقافة، ١٩٥٨.

٨- جـ. هاوكس ول. وولي، **أضواء على العصر الحجري الحديث**، ترجمة: د. يسري عبد الرزاق الجوهري، مكتبة الجامعة العربية، بيروت، بدون تاريخ.

* * *

obeikandl.com